الأنساق الثقافية في الرواية السير- ذاتية النسوية
(يوميات مطلقة / لهيفاء بيطار– أنموذجا)

د. عادل بوديار الجزائر

ملخص:

تُعدُّ رواية السيرة الذاتية شكلا سرديا مثيرا للجدل النقدي؛ لأنها تمثل فارقا شكليا وموضوعيا بين الفن والتجربة الشخصية، إذ يهتم أحدهما بالمتخيل ويركّز الآخر على الواقع، ولكن تطور أسلوب الكتابة الروائية العربية جعل المفارقة بين ما هو ذاتي وبين ما هو اجتماعي (واقعي) تتقلص نتيجة انغماس الكاتب في تقديم المواضيع التي تهم المجتمع مما جعله يقيّم تجربته الشخصية باعتبارها أحداثا قابلة للتجريب الروائي.

إن السيرة الأكثر جذبا للقارئ العربي المعاصر لم تعد سيرة الكاتب العربي الرجل، بقدر ما انحرف الانتباه إلى سيرة الكاتبات العربيات، اللواتي لم يدّخرن جهدا لعرض الرؤى الشخصية حول ملابسات الواقع الذي ينتمين إليه، بعدّهن طرفا فاعلا لا يعتدّ بفعاليته الاجتماعية إلا بقدر ما تتوافق مع النسق الثقافي المهيمن على الواقع العربي، خاصة حين تتحول المرأة من مهمّش طبيعي (أنثى) إلى مهمّش غير عادي (مطلقة)، يُنظر إلى وضعه المستجد نظرة ريبة وقلق مبالغ فيهما، بحكم المتوارث الثقافي الذي يحرك الأفكار والأهواء في المجتمع العربي" **وأنا سأقف بكل ثقة وشجاعة لأكشف النقاب وأقول كل ما لا يجب أن يقال وهذه أكثر مرة أحس أني أحترم نفسي بعمق، عساني أشبع نهم العيون المتطفلة التي لا تكف عن النظر من خلال الشقوق، والثقوب، وسأتأمل المتطفلين ببرود وثقة وهم يلعقون شفاهم لذة لما سأحكيه لهم، معتقدين أن غايتي هي الفضائح، وسنرى أخيرا من سيطأطئ رأسه وينظر إلى الأرض هاربا من المواجهة مع الآخر، أنا أم هم، وأنا أرى الصورة سلفا وأحس بنظراتهم المنكسرة، ذلك أني لن أفعل شيئا سوى أن أحضر مرآة سحرية تعكس لهم حقيقة نفوسهم** "[1]، إنه بوح أنثى عرضت يومياتها في صورة معلنة تعكس أنها امرأة ناجحة (طبيبة عيون)، وفي صورة أخرى مضمرة تكشف الظلم الذي تتعرض له المطلقة في المجتمع العربي ، لذلك كان من الضروري الانتباه إلى طبيعة الأنساق الثقافية التي تهيمن على الرواية السير- ذاتية العربية النسوية، من خلال ما أثارته رواية **(هيفاء بيطار)** في **(يوميات مطلقة)**؛ التي تسرد فيها قصة طلاقها وما لاقته من ارتباك اجتماعي، كان سببا في تحول حياتها إلى حالة من حالات الأزمة التي تشترك فيها النساء العربيات عموما.

1 – الوجود الأنثوي مقابل الآخر والحق في الكتابة:

إن رغبة المرأة في كتابة سيرتها الذاتية هي محاولة جديرة بالاهتمام لأن السيرة حدث لا يمكن أن ينصرف عن حدود الواقع؛ خاصة وأن واقع المرأة عادة يكون محفوفا بالطابوهات ومحكوما بالتستر في حدود العادي والمألوف في الثقافة التي ترى المرأة جسدا ملغما لتصبح " **الشخصية الإنسانية حقيقية وواقعية تاريخيا ومنتجة ثقافيا بقدر ما تكون جزءا من الكل الاجتماعي، من طبقتها ومن خلال طبقتها. وكي ندخل التاريخ لا يكفي أن نولد فيزيائيا. إن ولادة ثانية، اجتماعية هذه المرة، ضرورية كما كانت دوما. إن الكائن الإنساني لا يولد في هيئة كائن عضوي بيولوجي مجرد بل في هيئة مالك أرضأو فلاح، برجوازي أو بروليتاري، وهذا هو الجوهر هذه المركزة الاجتماعية والتاريخية وحدها تجعل الإنسان حقيقيا وواقعيا وتحدد محتوى خلقه الشخصي والثقافي**"[2] ليتحدد وجود المرأة في الكتابة النسوية مفصولا عن الحقيقة التي تفرضها الأنساق الثقافية العربية، والتي امتدت لتفرض سطوتها على النقد والقراءة بشكل جعل تتبع سيرة الكاتبة العربية يتجاوز حدود المواجهة القيمية الجمالية للمبتكر السير– ذاتي، إلى تتبع تفاصيل السرد، بوصفها أحداثا وقعت للمرأة الكاتبة بالفعل، ومن ثم الحكم عليها في الأخير كونها امرأة/ لا كاتبة، من خلال نص كان من المفروض أن يحمل المتخيل إلى جانب الواقعي، ليصنع جماليته ويتجاوز حدود الإقصاء المعوّل عليه نقديا، أو ليتجاوز الاتهام والإدانة، لكن هيهات!

إن هذا التمفصل النقدي الغريب عن مقومات النقد يندرج ضمن **المقاربة النسقية** التي ننوي إثباتها، أو إنها ستثبت نفسها في حال اتفق القارئ والكاتبة على مضمر أولي مركب يشكل ماهية الثقافة العربية منذ الأزل، وهو أن المرأة الكاتبة تستعين على كتابة سيرتها الذاتية بمتخيل مبتكر، يمكن أن يكون بديلا موضوعيا للمتخيل الجمالي المتعارف عليه في السرديات العربية والعالمية، وهو متخيل نسقي يجمع مضمرات العلامة الثقافية للمجتمع العربي، ويؤثث من خلالها تفاصيل النص الذي من المفروض أن يكون ذاتيا " **أستطيع أن أنفصل عن تلك المرأة التي كنتها، وأستطيع أن أجلس بهدوء، أضع رجلا فوق رجل، أمضغ اللبان، أو أقزّز اللب الصغير الذي أحبه، وأستعيد على مهل أو بسرعة أحددها بمزاجي، الأحداث التي أحب، ذلك أنني جمعت كل هذه الأحداث أو الظروف أو السنوات في علبة كبيرة وأحكمت عليها الإغلاق، وبين وقت وآخر أفتح غطاء العلبة، وألقي نظرة على كومة السنين المتكومة في العلبة، وأبتسم ابتسامة تحمل جزءا كبيرا من السخرية... لقد فكرت طويلا في جدوى ما سأكتبه، وأنا لا أعرف على وجه الدقة كيف سيوجهني قلمي. كل ما أعرفه أن هناك جوانب كثيرة في حياتنا يجب أن تعرى وتشرح بدقة لأن فيها تشوهات هائلة، مرعبة، لاإنسانية، والأفظع من كل ذلك أننا اعتدنا هذه التشوهات حتى اعتبرناها طبيعية، وهنا تكمن الخطورة** "[3].

إن ما تصفه الكاتبة بالتشوهات هو في الحقيقة يمثل القوانين الإنسانية التي اخترعها البشر لتنظيم حياتهم الاجتماعية، وهي تشكل غالبا اتجاهات عرفية عامة تكون لها سطوة أكثر من الدين لشدة التصاقها بالتراث وبالتاريخ وبالذاكرة الثقافية العربية، على هذا تسرد الكاتبة ما شوّه حياتها ووجودها الإنساني بطريقة لا تعري الحقيقة الكاملة كما تدعي، أو كما تزمع في بداية نصها السير-ذاتي، لكنها مع ذلك تحقق جانبا مهما من الصراحة الفكرية التي تسمي الأنساق بمسمياتها الفعلية، أو على الأقل بمسمياتها المألوفة على الصعيد الثقافي العربي عامة.

تتحقق رغبة المرأة العربية الكاتبة في الاعتراف بما يتخبط داخل حياتها المحكومة بقوانين المجتمع المقولب ضمن ثقافة الأنا والآخر من خلال الكتابة، غير أن الكتابة في كل الظروف لا تحقق الانتصار ولا الخلاص، بل إنها تمثل فعل انتحار رمزي، خاصة حين يكون النص الأنثوي المشبوه سلفا سيرة ذاتية تحمل الإدانة الاجتماعية من داخلها " **ويصيبني الذهول، قلم يرقص وحده !! قلم الإنقاذ، وسيلة الانتحار الرائعة المبدعة، وأمسك القلم وأحضر ورقة بيضاء. وأبدأ برسم خطوط ودوائر عشوائية، وأحس ببرعم نشوة صغير يبدأ يزهر في روحي، وأنفخ على المنديل الصغير فتطير السموم تملأ الغرفة وترسب على البلاط غبارا، مجرد غبار. وأتابع خربشات قلمي لأجده يكتب أخيرا يوميات مطلقة. لا توجد لذة في العالم تفوق لذة الاعتراف، خاصة إذا كان اعترافا صادقا، له هدف إنساني، أن يقدم خدمة للناس، تفيدهم ولو قليلا، وأنا**

سعيدة أنني سأكون جسرا سيعبر فوقه كثيرون، وسأحرض باعترافاتي الجريئة، تساؤلات في غاية البساطة، ولكن الغبار تراكم فوقها وطمسها"[4] فالإدراك المسبق لطبيعة التوترات التي يمكن لرواية أنثوية سير-ذاتية أن تحدثها يجعل الكاتبة تقف على حافة التحدي، لكنها تعترف مسبقا بإمكانية اضمحلال وجودها الإبداعي في حال كانت سيرتها مشوبة بالرفض المسبق لوجودها المستجد في المجتمع العربي، أو بالرفض اللاحق لما تحاول أن تقوله حول ذلك الجديد الذي يجعلها في خانة الاتهام أو الريبة.

إن ما يمنح الرواية السير-ذاتية قيمتها هو نفسه ما يجعلها مختلفة عن كتابة المذكرات الشخصية (اليوميات)، هذه الأخيرة التي لا تحتاج إلى قوة إبداعية أو إلى تكثيف جمالي لأنها لن تحافظ على وجودها الآني مهما كان صاحبها، فما يجعل النص السير-ذاتي يستمر إذا، ويدهش، ويؤثر، هو أن **" السرد الروائي يمضي به عبر مسار ثري محتشد بالتنوع، من غير أن يتخلى بالضرورة عن هزّ الوجدان ورجّه، حتى لو عاد المسار بالمتلقي إلى نقطة البدء عبر ما يسمى السرد الدائري، فالسرد خلال ذلك قد جعله يفوز بالتطواف في غابة زاخرة بالمناخات والطبائع الفردية، والتراكيب الاجتماعية، والصعود والهبوط، والتوتر والاستواء، وبكل ما يجعل الحياة البشرية على ما هي عليه من ثراء مدهش في مختلف الميادين، وعلى مختلف المستويات "**[5] وهو ما كانت تقصد إليه الكاتبة في روايتها، إنها تتوسل حالتها الفردية لتقول ما لاقته من طبائع ومفاهيم اجتماعية، وهي بهذا لا تقول نفسها بقدر ما تقول المجتمع والآخر، الذي يجعل وجودها الأنثوي صعبا وخطيرا خاصة بعدما صارت مطلقة **" وقد وعيت كيف أن الفتاة في بلادنا تتأرجح بين خانتين أو مسكنين أو علبتين، إما العذراء الطاهرة حتى لو بلغت السبعين، أو الزوجة المطيعة المعطاء التي تفني نفسها في سبيل زوجها وأولادها، وتضيع حدودها وشخصيتها تماما، خارج هاتين الحلقتين لا توجد المرأة أبدا في بلادنا، إلا وتكون شاذة، فالمرأة صاحبة التجربة امرأة مغضوب عليها، والتي تطلق يصبح اسمها مطلقة، ينسى الناس اسمها ومهنتها وميزاتها، ليصير اسمها مطلقة بما تعني هذه الكلمة من معان "**[6] مقيتة تتحول المرأة معها إلى مهمش محكوم عليه بالنبذ أو الاستغلال.

يلتبس مفهوم الآخر بالنسبة إلى المرأة الكاتبة كتوصيف مفهومي عرفي مختلف عن المرأة العادية، ذلك أن فلسفة الآخر تتجاوز محدداته المادية القائمة على اختلاف الجنس البشري (ذكر/أنثى)، فالمرأة الكاتبة تحاول أن تحدّد وجودها من خلال إخراج الإبداع إلى دائرة الجمال الذي لا فرق فيه بين الذكر والأنثى إلا بمقدار الابتكار، على هذا كان لا بد أن تكون سيرة الكاتبة يوميات لعلاقتها بالآخر الذي تريد أن تبني - من خلال تصورها له - للقارئ وعيا به، إن الرهان الذي راهنته الكاتبة انقسم على مستوى القراءة إلى شقين: أحدهما أن القارئ صار يعرف مع من يتعامل، أو بالأحرى مع من يتفاعل قرائيا وهذا ينطبق على كل ما سيقرأ للكاتبة من نصوص، وثانيا أنه وهو يرى نفسه في تلك اليوميات يستمر في رؤية نفسه في بقية النصوص، فتحقيق استمرار القراءة ميزة لا تتوفر لكثير من المبدعات **" القراءة التي تؤدي إلى تغيير جزئي أو كلي في وعي المتلقي ومواقفه العامة من نفسه ومن الحياة، وهنا تجدر الإشارة إلى الدور الحاسم الذي تلعبه طبيعة المادة المقروءة في تشكيل استجابة المتلقي عبر هذا المستوى، وانقسامها إلى اتجاهين أساسيين: يصب الأول في تشكيل التصورات والأفكار الإيديولوجية والسياسية، ويصب الثاني في قضايا التفكير الجمالي وتشكيل الذائقة الفنية "**[7] إن استمرار (هيفاء بيطار) في الكتابة واستمرار القارئ في التفاعل، هو نتيجة حتمية لكسب الرهان الذي أعلنته الكاتبة وهي تخوض تجربة الرواية السير-ذاتية أمام قارئ لا يعترف إلا بنفسه وبما يعتقد، فتحرك الوعي القرائي ميزة أخرى تنضاف إلى ما تحمله الرواية النسوية الذاتية من مميزات.

يحاول المتلقي أن يكتشف الحقيقة الكاملة من خلال الرواية السير-ذاتية، غير أن التفاعل الذي حققته هذه الرواية نشأ أصلا من إمكانية افتراض الكذب والقبول به، وذلك لأن الكاتبة تحايلت على الخيال بشكل مبدع حين جعلت الأنساق المضمرة تقف بدلا عنه لتواجه القارئ بما لم يكن في الحسبان **" أتذكر منذ سنوات بعيدة حين كنت في عمر الأسئلة، كنت أسأل أمي المتزنة المثقفة الذكية، لماذا تقاليدنا ظالمة في بعض جوانبها، خاصة للمرأة، وكانت أمي تجيبني بذكاء إن**

المجتمع سيتطور، وإن هذه التقاليد ستتغير مع الزمن... وكان خيالي يلتهب ويشتعل حماسة، لأفكار مبهمة لا أعرفها، ولكني أحس ببذورها، فأقول لأمي الحكيمة:

ونحن يا أمي لماذا لا نساهم في التطور؟

فيبدأ الجزع يتسلل إلى ملامحها الرصينة الهادئة وتقول:

لا، نحن لن نضحي بأنفسنا.

ولكن كيف سنطلب من الآخرين أن يضحوا؟

عليك أن تكوني ذكية وحذرة يا ابنتي، فليس أصعب من تحدي الأعراف العامة ومن يخالفها يتعرض لأشد العقاب.."[8]

فالكاتبة هنا تستحث وعي القارئ وتضعه أمام نفسه مباشرة، إن المواجهة المعلنة بينها وبين الآخر هي الحل الأمثل الذي جعلها تخرج من دائرة الاتهام الشخصي المفرد، فقد أعلنت منذ البداية موقفها الوجودي الفاعل، وقد منحتها الكتابة السيرية فرصة لتواجه نقائص الواقع الذي تنتمي إليه، لعبة الأنساق إذا كانت حلا ذكيا لإخراج الرواية السير-ذاتية النسوية إلى الضوء، وإجبار القارئ على الاعتراف بها والتفاعل معها بوعي -قد لا يكون اختيارا- لكنه وعي متحقق ضمن الشروط التي وضعتها الكاتبة وقادته إليها.

2 -الأنساق المضمرة في الرواية:

أ -النسق الديني:

يمثل الدين في المجتمعات المؤمنة نسقا ثقافيا مهيمنا وخاصا، ذلك أنه لا يمكن إخضاع التعاليم التي يقدسها الإنسان المتدين للمساءلة أو النقد، وتختلف وجهة نظر الناقد إلى مسألة الحضور الديني النسقي، بمعنى الحضور الديني الملتبس بالأعراف الاجتماعية والمواضعات الإنسانية التي يبدو أن أغلبها ليست من صلب الدين في شيء، وإن كانت قريبة منه.

إن " **المسيحيين وجذورهم وثقافاتهم وأنماطهم الحياتية هي مشرقية الهوى والهوية... مسيحيتهم محافظة، شأنهم في ذلك شأن إسلام المسلمين من مواطنيهم على عكس المسيحية الغربية المرنة والتقدمية.. أحاطوا أنفسهم بالحواجز المانعة للتقدم شأن المسلمين** "[9] الأديان في المجتمعات العربية ملتبسة بالأعراف والتقاليد، ولهذا فكل جماعة تمارسها بطريقة مختلفة عن الأخرى؛ منحرفة أو مشوهة، نظرا لكثرة التأويلات الدينية والاجتهادات الفقهية والتفسيرية وضياع الإنسان العادي أمام ما يجب الأخذ به وما يجب الحذر إزاءه، هذا التفكير نفسه يجعل القارئ أو المفكر غير قادر على طرح أفكار مغايرة لما هو سائد بفعل العرف الاجتماعي، أو ما تم الاتفاق عليه على أنه ممارسات دينية، أو مناقشتها، ما يحدث هو أن العامة تنصب المشانق بعدها على طول طريق الأفكار الجديدة، وتلك أزمة عظيمة ترزح المجتمعات العربية تحت وطأتها منذ زمن.

لا يتعلق النسق الديني في هذه الرواية بالإسلام، بل يتعلق بالديانة المسيحية التي لها أتباع كثر في المجتمعات العربية، وهي تعيش إلى جانب الإسلام جنبا إلى جنب دون مشاكل تقريبا - إلا المفتعل منها - وقد يكون الناقد المسلم في هذه الحالة مجبرا على تضمين دراسته مقارنات بين الدين الإسلامي والديانة المسيحية، من خلال ما رفضته الكاتبة نفسها من تشريعات يبدو أن المسيحية الحق نفسها بريئة منها، لكن النسق الذي نسعى هنا إلى مناقشته لن يتضمن شيئا من تلك المقارنات؛ لأنها لم تكن مطروحة من قبل الكاتبة في عرض سيرتها الواقعية " **كما تمّ تمثلها في مرآة النص [فـ] لا ينبغي البحث عنها في الواقع بل في الشكل الذي تم رسمه داخل المرآة، فهناك سر خاص بالمرآة نفسها يمبغي على الناقد أن يبحث فيه، فلا ينبغي التنقل بين النص والواقع، بل ينبغي تحليل النص، والتحليل يكمل مفهوم المرآة. ولكب لا يكون هذا التحليل غامضا، وجب تناول النص كبنية مكونة من أجزاء متغيرة، ففي مقابل تعقيد السيرورة التاريخية على الناقد أن يعرف كيف يقوم تعقيد النص** "[10]، لهذا فطبيعة العمل هنا ستوثق فقط طبيعة الانتقاد الذي وجهته الكاتبة لقضية تتعلق بيوميات

طلاقها، وما أحدثته قرارات المحكمة الدينية من صدع في حياتها كلفها ثورة تشبه الردّة، قياسا إلى طبيعة الجروح التي خلفتها في روحها **" كان بناء الدير رائعا. وأحسست بالرهبة تغمر روحي، وتمنيت لو أقضي فيه أياما أبتعد عن مشاغل الحياة وتفاهاتها ومشاكلها..وانتهت إلى نور شاحب ينبعث من نوافذ إحدى الغرف، وشدني هذا الضوء الخافت فاقتربت من النافذة، ونظرت إلى الداخل نظرة فضولية، فرأيت مقاعد خشبية مصفوفة بانتظام. وأيقونات رائعة، وسقطت دموعي حارة لاذعة وأنا أتخيل فتاة صغيرة في الثامنة من عمرها تقف بخشوع في الكنيسة أمام أيقونة العذراء مريم، تشبك يديها ببعض وتغمض عينيها وهي تتلو الصلاة الربانية"**[11]

إن الكاتبة في هذه الرواية تزج بنفسها في منطقة متوترة ومشبوهة وهي تتعرض بالنقد للسلطة الدينية في شخص الكاهن **" هذه صورة صاحب السيادة تملأ شاشة العرض أمام عيني، مظهره الوقور، جبهته العريضة المخططة بالتجاعيد، لحيته المقصوصة جيدا، وابتسامته التي يعتقد أنها تنشر السلام في داخل النفوس المضطربة، ويداه المقوستان المتخذتان أبدا وضعية الاستعداد لتلقي القبلات، وتلك الميدالية الذهبية الضخمة التي ترتاح على مقدمة كرشه.. وهذه أنا أجلس على الكرسي المعتاد أحكي له خيبة زواجي وحياتي.. بعد أربع سنوات أجلس في المكان ذاته... وصار منظر صاحب السيادة الوقور يحرض فيّ شعورا بالنعاس والاسترخاء، وأخذت أفكر فيه كشخص، ترى كيف هي طباعه وأخلاقه، وللحظة تساءلت ما علاقتي به، وكيف كنت أفضّل مشاكلي الخاصة أمامه، عجبا كيف لم يخطر لي هذا التساؤل من قبل؟"**[12] فالأزمة الشخصية التي تعرضت الكاتبة إليها كانت هي الامتحان العسيرالذي حرك المسلمات الدينية في ذهنها، وجعلها تتساءل حول طبيعة العلاقة بين الفرد المؤمن والفرد القائم على تطبيق الإيمان والحفاظ عليه، ما جعلها تشعر بأن السلطة المزعومة لمن تسميه (صاحب السيادة) ما هي إلا اجتهاد بشري لإنسان عادي منحه الدين مكانة يستطيع من خلالها أن يتحكم بمصائر البشر، وأن يطلع على أسرارهم بمحض إرادتهم وكأنه إله **" وقاطعته: سنوات الهجر، أنت تقول سنوات، أنت ببساطة شديدة تجلس وراء مكتبك وتطلق حكم الهجر لزوجين في قمة نضوجهما وشبابهما، تقول لهما اهجرا بعضكما. وترميهما في فم الغول كما يقال: سنوات وسنوات، هلا تساءلت كيف سيعيش هذان الزوجان، أليس هذا وضعا مثاليا للانحراف. وكأنه أجفل من كلمة انحراف فقال: أعوذ بالله، ما بك يا ابنتي تتحدثين بهذه العصبية "**[13] فيبدو أن الكاتبة لم تكن تتحدث بعفوية بقدر ما كانت تقصد إلى إعادة تشكيل الرؤية الدينية إلى الطلاق وإلى الانحراف، لهذا فهي تطرح من خلال سيرتها فكرة الإحساس الفردي والإحساس الاجتماعي، وهما شكلان مختلفان لم يتوافقا أبدا؛ فإن الفرد الذي ينتصر لأحاسيسه محكوم عليه بارتكاب الذنب أو الإثم الذي لا يغتفر، خاصة إذا كان الإحساس متعلقا بالمرأة **" لا أدري لماذا أكتب عنه والقلم يرتجف بيدي لكأني أغوص في الحرام؟ مع أني متأكدة أن لكل إنسان تجاربه، ولكن أن تتحدث امرأة عن تجاربها فهذا عار"**[14] فمسألة الحب بالنسبة إلى المرأة العربية من المحرمات التي لا يجب ارتكابها وبالتالي لا يجب الخوض فيها بالحديث أو بالكتابة، خاصة حين تكون الكتابة سيرة فعلية متحققة في الواقع **" فالحديث عن خصوصية شعب ما وعن خصوصية وجدانه لا يتم من خلال البحث عن قيم لا توجد عند غيره من الشعوب، بل هو في الأصل بحث عن مفصله خاصة للقيم المشتركة بين كل الشعوب، فما يميز ليس امتلاك قيم والاستفراد بها، إنه، على العكس من ذلك، خلق لأشكال جديدة خاصة بتحققها "**[15] ضمن عقلانية أنثوية تعترف بالمشاعر الصادقة وتأبى الظلم، ولهذا من الواضح أن أهم أنواع الانحراف بالنسبة إليها كان الانحراف عن تعاليم المجتمع، فهو الأخطر لأنه يكشف الملابسات التي تعيق حركة التفكير السليم، لكن هل أمكنها ذلك في النهاية؟ هذا هو السؤال.

وفي الوقت الذي تبدو فيه الكاتبة رافضة للنسق الديني الذي يسيطر على حياة المسيحيين من خلال نبرتها الساخرة تجاه قانون الهجر وتصرفات الكاهن، تستعين لتدافع عن حقها في الخطأ أولا وعن طريقتها في اختيار حياتها ثانيا من النسق نفسه **" وقبل أن أتحدث عن حالة النبذ الاجتماعي القاسي الذي عشته أحب أن أذكر جملتين رائعتين للسيد المسيح،**

الأولى: من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر. والثانية وأحسها تكمل الأولى: ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه "[16] هذا إنما يقودنا إلى ضرورة إعادة البحث في الكثير من القوانين المفروضة على المجتمع بدعوى الدين، ذلك؛ إما لأن العرف والقبول والإيمان دون مناقشة أو سؤال، هم الذين جعلوا ما يصدر عن المؤسسة الدينية في خانة المسلمات التي لا تقبل الجدل أو الاعتراض، وإما لأن المؤسسة الدينية نفسها مخطئة في شرحها وتفسيرها وبالتالي تطبيقها للكثير من التعاليم.

ب -النسق الاجتماعي:

اعتقد النقاد أن النص السردي هو بناء لعوالم ممكنة من خلال الاستناد على العلامات التي تشكل أنساقا ثقافية ما، لكن الأكثر جذبا في هذه الرواية، أو في الرواية السير-ذاتية عموما هو أن الممكن والكائن النصي يكادان أن يكونا واحدا، هذا الاقتراب الذي تحدد أبعاده التطابقية قدرة الكاتب على إعمال الخيال والتلاعب بالواقع، وفق منظومته الخاصة لقول الحقيقة التي تنتهي في الأغلب إلى كونها وجهة نظر **" فإذا كنت ذات المبدع تتموضع خارج السيرة الذاتية على نحو غامش، فيما يخص طبيعة حضورها، ونوعية ذلك الحضور في ثنايا النص، فإن هذه الذات تبدو في السيرة الذاتية أكثر تشخصا وقابلية للتحليل... تضيع فيه الحدود بين الذاتي والموضوعي، وتختل فيه العلاقة بين الكاتب والسارد والشخصية، كما تتحقق في إطار السيرة السيرة الذاتية، كان سابقا من الناحية التاريخية... وإذا كان ذلك يعود إلى الرغبة في التهرب من القيود المتعددة التي تواجهها عملية الاعتراف، فإن من المفارقة أن تكون الرواية، وهي التي كانت جنسا أدبيا لقيطا في نظر الكثير من النقاد العرب... أن تكون الوسيلة للتنفيس عن آفاق الذات المحاصرة في سياق اجتماعي متحول "**[17]،

ولكن ما الذي يمنع أن يخالف النص السير–ذاتي الحقيقة ويميل إلى الواقع (بعدّ الحقيقة والواقع شيئين مختلفين) إذا كانت التجربة الفردية نتاجا لممارسة جماعية ينتفي فيها حق الاختيار غالبا؟ أو ما الذي يجعل هذا النص مخالفا للحقيقة وللواقع أيضا إذا كانت الكاتبة تنأى بنفسها عن الاستمرار ضمن لعبة القطيع لتخرج بفكرها الثوري صادمة أعراف المجتمع بالمواجهة والانتقاد؟ غير عابئة بالحكم الذي سيسلط على رقبتها وهي المدانة بالجرم المشهود (الطلاق) الذي لا يكف عن أن يكون ثورة مزدوجة أو ثلاثية الأبعاد؛ ثورة على المجتمع وعلى الدين وعلى الرجل **" وأجد نفسي كيف أستيقظ عارفة سلفا يومي الجديد بأدق تفاصيله، ألعب مع صغيرتي الحلوة قليلا قبل ذهابي إلى العمل، أرتدي ملابسي، وأرسم مكياجي البسيط وأذهب إلى عملي تاركة صغيرتي برعاية جدها وجدتها، أعود ظهرا، وما إن أفتح الباب وأدخل حتى يكون باب غرفة أهلي قد أغلق ليرتاحا قليلا بعد الغداء، وأتناول غدائي وحيدة كالعادة ثم أسارع إلى الصغيرة أضمها إلى صدري... وبعد حوالي الساعة تكون أمي قد استيقظت، فأسرع إلى غرفتي لأرتاح قليلا... بعد الظهر أذهب إلى عيادتي..."**[18] فأول ما تقع فيه المرأة المطلقة في المجتمع العربي التقليدي الصارم هو الوحدة والعزلة التي تفرض عليها من الخارج لتنتقل إلى داخلها قسرا **" الكلام شبه مفقود بيني وبين أهلي، لقد تعبنا من الكلام، تكلمنا كثيرا كثيرا في ما مضى، وانفعلنا، وناقشنا مشاكل زواجي وفشله و... أوه شيء لا مجد فعلا، وعرفت أخيرا أن الحياة يجب أن تستمر، فهي تدير ظهرها لنا، لا يعنيها أكنا سعداء أم تعساء "**[19] بهذا التمثيل الذاتي للنص يتحقق للسيرة الذاتية وجودها داخل عالم السرد، إن الكاتبة هنا لا تعطي تقريرا جاهزا عن حياتها، مع أن المفروض الأولي يمهد لذلك فعلا، بل هي تبني بالتدريج حياة داخل النص ومن خلاله، تلك الحياة التي كانت موجودة وقابلة للملاحظة الخارجية، تتحول إلى لبنة لتشكيل مفهوم لتلك الحياة من جوهرها الذي لا يخلو من التساؤل والدهشة ومحاولة التفسير.

إن ما يهم المجتمع القارئ بالنسبة إلى (يوميات مطلقة) ليس هو النمط التقليدي لمقاربة الموضوع من خلال السرد، بل هو المواجهة الفردية للموضوع من منظور جماعي أولا، فالكاتبة ترفض التماهي: **" التماهي هو الوسيلة التي تتواطأ فيها المرأة**

وتصبح متآمرة في ظلم نفسها " [20] لذلك تنتهي إلى تفكيك الرؤية الجمعية وخلق تعدد رؤيوي لا يخدم النص بالقبول والمعارضة فحسب، بل يجعل منه أداة للتغيير من جهة ولتحريك المسلمات وهزّ الحصون الفكرية الاجتماعية من جهة ثانية **" فأنا ابنة الأسرة الشريفة التقليدية لا يجب أن ينتهي مصيري إلى الطلاق "** [21] من خلال خلخلة مفهوم التقاليد ومعنى الشرف، ومحاولة التركيز على ضرورة تحكيم اعتبارات العقل والمنطق، لا كما يقرها المجتمع فعلا بل كما يجب على العقل أن يفكر ويقرر بشأن أزمته **" محكمة البداية قد حددت إراءة الصغيرة لأبيها بمرتين في الأسبوع، وأطلقت حكما بالهجر بين الزوجين غير محدود بزمان !.. وطوال الطريق كان عمي يعظني، أنه يتوجب علي أن أكون عاقلة وهادئة، وأن أفكر بمستقبل طفلتي التي يجب أن تعيش بأمان بين أم وأب، وأن السنتين اللتين مرتا، كفيلتان أن تغيرانا - زوجي وأنا - وتجعل زوجي الوهمي أو والد طفلتي أرجح عقلا، وتحرره من أحقاده.. آه ما أسهل الكلام "** [22] في الوقت الذي تنتظر المرأة وابنتها حلا جذريا قاطعا يوفر عليها مواجهة أصناف متعددة من النبذ والإحساس بالدونية والعجز عن مواصلة الحياة.

تبدأ المواجهة الفعلية للكاتبة بالمجتمع عندما تقف وجها لوجه أمام ضرورة الاختيار **" وسمعت صوتا غريبا يصدر عن حنجرتي وقلت: أجل أنا مستعدة شرط أن يحترمني ويعاملني معاملة حسنة و... لا أعرف ماذا أكملت، ولكني تذكرت عمي كيف كان ينصحني بقول عبارات معينة... وسأل المطران زوجي السؤال نفسه وسمعت صوته، فانكمشت أذناي لسماع صوته، وأخذ يتحدث أنني زوجة فاشلة لا أتقن الطبخ، ولا أحترم أصدقاءه وأهله، وأن عصبيتي لا تحتمل. وأحسست أني أتضاءل وأنكمش، فلم يخطرلي في يوم من الأيام أن نقف في مجلس ويتحدث عني بهذه الطريقة، يا إلهي كم صار قاسيا، كم شحنه الزمن بأحقاد لا تنتهي..."** [23] غير أن الرجل في هذا الموقف أسهم بشكل فعال في تحوير جهة الاختيار إلى ما لم تكن الكاتبة ترغب فيه، أو ربما كانت أكثر تعقلا وهي تطرح مسألة الرجوع، ليس باعتبارها أنثى مكسورة الجناح بل باعتبارها امرأة تحتاج إلى حياة كريمة كي تستمر، غير أن الرجل العربي لا يمكن أن يقبل بفكرة الشروط التي تحددها المرأة كي تكون إلى جانبه، الرجل العربي يقود المرأة وفق السلطة المخولة إليه وفق شروطه الذكورية المحضة بغض النظر عما إذا كانت عادلة أو صالحة أو مناسبة لامرأة تفكر وتبدع وتأمل في العيش الكريم.

إن الرغبة الملحة في السيطرة التامة من قبل الرجل العربي، تحول المرأة من كائن يعيش إلى كائن يثور، فيصبح تدمير الذات كما تراه القوانين الاجتماعية بالتمرد عليها، أقل تكلفة من الاستمرار ضمن نطاق العبودية الأزلية المقصودة **" وبعد أن غادرنا الأصدقاء اشتعلت خلافاتنا مجددا، ولم نعد نحتمل مشاكلنا الانفجارية المستمرة، العنيفة بيننا، صار البيت ساحة حرب وقتال ودمار، كنت أحسبه يريد أن يدمرني ليثبت لنفسه أنه الأقوى وأنه الرجل، هذا المثقف المدعي، كان يقبع في أعماقه، رجل شرقي متسلط يريد أن يسود ويحكم، لن أظلمه وحده وأقول أنه مدع، لأني اكتشفت أني أنا أيضا مدعية، وأنني كنت أعتقد أنني أمن بأفكاروميادئ، واكتشفت عند أول محك أنني أرسب في الامتحان "** [24] فما تحاول الكاتبة أن تبينه هنا لا يهاجم الرجل العربي فحسب بل يهاجم المرأة من جهتين: أولهما أنها تتزوج وهي مؤمنة بالأعراف كلها لكنها لا تستطيع تطبيقها بدقة تضمن لها استقرارها، وثانيهما أن المرأة العربية لم تعد مخلوقا قابلا للسبي، فارتفاع مستوى وعيها بقيمتها الأنثوية حقق لها إيمانا بضرورة إثبات وجودها ندا للرجل من الناحية العلمية والفكرية، لهذا فإن القيمة التي منحتها الكاتبة لنفسها أغنتها عن قبول القيمة التي يتفضل بها المجتمع العربي ممثلا برجاله للمرأة **" هكذا إذن، يا لسعادتك يا عزيزتي، بعد أن طحنت، وذبت، وحفرت بك السنوات الأربع أخاديد لا تنتهي، وتحملت ما لا تقدر أعصابك على تحمله، يتحنن عليك الزوج، ويومئ إليك برأسه، أو يشير إليك بسبابته أن تعودي، هيا، اقفزي، اصرخي من الفرح، أية سعادة لا توصف هذه ! أية سعادة تشبه النوبة العصبية الهستيرية، لقد رضي عنك الزوج أخيرا، رضي عنك سيدك يا نفسي المسكينة، هذا ما يجب أن يكون هدف حياة كل زوجة نعمة رضاء الزوج، حتى لو كان هذا الزوج صعلوكا، مريضا، ساديا، منحطا، لا يهم، إنه رجل، رجل... ورددت بفتور: آسفة يا سيدي، لقد انتهى هذا الإنسان من نفسي..."** [25] فانتهاء

رجل ما من حياة امرأة ليس اختيارا صعبا عندما يكون هذا الرجل مجرد أداة لقهر المرأة ولإهانتها، على عكس ما يتوهمه المجتمع ويفرض بناء عليه **" وجوب عقاب المرأة الخارجة عن المؤسسة الاجتماعية السائدة، ففكرة "العدالة الاجتماعية"... دائما ما يتم تطبيقها على النساء بصرامة. فإذا جنحت المرأة عن النمط السلوكي المتعارف عليه تمت معاقبتها دون هوادة، بينما يتسع صدر [المجتمع فيقبل] توبة الرجل الخارج عن النسق الاجتماعي السائد بدعوى أن جنوحه جزء أصيل من "طبيعته" وتوبته تحسب له لا عليه "** [26] في حين أن بطولة المرأة غالبا تتمثل في مدى قدرتها على الخضوع مع أن استمرار الحياة في الأخير يتطلب استئصال بعض الأعضاء المريضة حتى تتجنب المرأة الموت الأكيد **" في حياتي كلها لم آخذ راحتي كاملة في التفكير، كان علي أن أفكر دوما وفق كمبيوتر سري دربوني عليه، لو أخذت راحتي في التفكير لما تزوجت هذا الإنسان أبدا... لماذا تزوجته وأنا كنت فتاة ناضجة أكملت دراستي العليا وتجاوزت الخامسة والعشرين، وضحكت بسخرية لا لم أكن ناضجة، كانت جرثومة خبيثة تفتك بأعصابي هي جرثومة الخوف...وكل الناس مصابون بها خاصة الفتيات.. وأعترف ببساطة أنني تزوجت خوفا من عدم الزواج، خوفا من التعنيس "** [27] الذي هو في الحقيقة صورة أخرى للاستبداد الذكوري بالمرأة والسيطرة على عقلها ونفسيتها، بأن يجعلها ذات عمر افتراضي تحدده سنوات قليلة من عمرها لتنتهي بعده مجرد كائن نسبي الفائدة إن لم يكن عبئا.

والحقيقة أن مصطلح العنوسة هو مصطلح خاضع للنظرة الجنسية التي ينظر بها الرجل إلى المرأة، بمعنى أنها تصبح عانسا عندما تتخطى مرحلة تحقيق اللذة المطلقة التي يشترطها الرجل العربي في امرأة شابة توفر له متطلباته الشبقية المتعالية، لهذا فالعانس ليست تلك المرأة التي كبرت ولم تتزوج فقط بل هي أيضا تلك المرأة التي تزوجت وأنجبت ربما وفقد جسدها رونقه ونضارته، فتصبح قريبة من سن اليأس البيولوجي والعنوسة الجنسية التي لا يقبل بها الرجل في الأخير، إن هذا التحليل هو الأقرب إلى ما كانت الكاتبة تود أن تطرحه **" لكن هذه الحالات أخذت بالازدياد، خاصة أن الزواج صار أزمة حقيقية أساسها اقتصادي، وماذا تفعل الفتيات حين يتحول الزواج إلى حلم مستحيل، أو صعب التحقيق، كنت أتساءل كيف ستعيش هذه الشريحة المتزايدة من الفتيات والشبان، وقد صار الزواج حلما مستحيلا؟ وهل مازالت لتلك القيم القديمة سلطة عليهم؟! "** [28] لتصل في الأخير إلى أن تساوي النتيجة التي تحصل عليها المرأة لا يتعلق بالقيم الاجتماعية ولا بالقوانين التي تفرض عليها اختيارات شخصية مجحفة في حق ذاتها، بل يتعلق بطبيعة الرجل العربي عموما؛ وهو أنانيته المفرطة تجاه نفسه وحياته وتجاه تعامله من المرأة في إطار تحقيق متطلباته الأنانية تلك، بعدّها طرفا يمكنه أن يرضى بما يوفره لها من ماديات، بل أن ترضى بما لم يوفره، معتقدا أن المهم بالنسبة إليها أن يكون موجودا في حياتها، وأن تلك نعمة يجب أن تحمد الله وتحمد الرجل عليها حتى إن كانت تعامل معاملة سيئة **" وعرفت فيما بعد كيف كان أولاده يعانون قهرا نفسيا صعبا وقاسيا بسبب نرجسية والدهم وأنانيته، وهم في بداية مراهقتهم يتفرجون على أب يفترض أن يكون مثلهم الأعلى، كيف يراهق ويعشق فتيات صغيرات بعد أن سبب لزوجته نوبات حادة من الانهيارات العصبية "** [29] لتنتقل إلى تحوير القضية وجعلها قضية سلبية ليس على المرأة وحدها بل على البيت كله، فظاهرة الأنانية واللامسؤولية التي يعاني منها الرجل تهدم البيت وتحول اللبنة الأولى للمجتمع إلى ساحة لتنامي الحقد والكره وتولد العنف وانتقاله إلى الشارع وإلى الحياة عامة.

وفي الوقت الذي يمكن للرجل العربي أن يكون مثاليا **" إنه أبي الحبيب ليس لرابطة الدم بيننا بل لأنه بكل بساطة كان أبا مثاليا... لا يمكنني أن أنسى كيف درس معي الرياضيات في صف الكفاءة وساعدني على فهمها وهو أستاذ اللغة العربية"** [30] ويكون من العسير عليه أن يخترق سلطة القوانين الاجتماعية وأن يقبل بأن تطالب امرأة بحقها في الحياة خارج تلك الشروط وإن كانت ابنته.

إن المرأة التي تطالب بحريتها وبكرامتها وبحقوقها ستخسر في الأخير كل الرجال مهما كانت مطالبها مشروعة وقضيتها عادلة " **ما كنت أتخيل أن يصيبنا داء الخرس – أبي وأنا – ما عدنا نتبادل الكلام أبدا إلا عند الضرورة القصوى، ودائما كنا نقول الكلام الذي لابد منه دون النظر إلى بعض... ما كان داء الخرس ليصيبنا لو كنا نعيش في باريس مثلا، ذلك أن جرثومة الخرس تحب التفشي والانتشار في مجتمعنا، وهي لا تعيش إلا في القشرة أو البطانة، لأن الناس هنا يغلفون حياتهم وتصرفاتهم بقشرة دوما كي يتجنبوا الوضوح والصراحة والطبيعية** "[31] لهذا فإن دائرة الصراع مع الأنساق الثقافية التي تهيمن على المجتمع العربي، تضع السؤال الأكثر صراحة أمام القارئ بشكل مباشر في هذه الرواية، وهو أنه إذا كان لا بد للمجتمع أن يتغير نحو الأفضل فمن الذي عليه أن يتغير أولا؛ الرجل أم المرأة؟ " **أبي الذي كان طول عمره متصالحا مع ناسه ومجتمعه مسايرا للأخلاق العامة والتقاليد صحيح كنت أسمعه يناقش وينتقد الكثير من المظاهر الخاطئة في سلوك الناس وتفكيرهم لكن ذلك كان مجرد كلام، فلم يصطدم أبدا في حياته مع أحد، وظل الابن البار والرجل المحبوب في مجتمعه، ولم يخطر بباله يوما... أنه سيطعن من قبل ابنته البكر التي عشقت رجلا وهي على ذمة رجل آخر...**"[32] إن المشكلة العويصة التي تتحكم بتفكيرنا هي أننا نعرف القيم والحق، لكننا نبتعد عنهما حين تكون الأخطاء من صنع ذوينا، فنرفض أن نسامح وقد كنا نتلمس الأعذار مادامت النار بعيدة عن تِبننا.

ويبدو أن الأعمال الأدبية والفكرية المصاحبة لحركة التحرر النسوية في العالم العربي قدّمت المرأة بشكل مختلف عما تود الكاتبة أن تبرزه هنا " **فإنها جميعا تقدم المرأة من خلال صورتين ذهنيتين منمطتين محددتين. فجميع النساء في هذه الأعمال إما خاضعات ضعيفات، وبالتالي مرضي عنهن يصورن كالملائكة، وإما متمردات فيتم احتواؤهن في إطار صورة أو مجاز الساحرة أو الشيطانة الواجب نبذها. وغالبا ما تصاغ "الحالة الاجتماعية" لنمط "المرأة الشيطانة" في الأعمال الأدبية على أنها غير متزوجة مما يؤكد في وجدان القارئ انفراد الرجل بالعقلانية وغياب هذه الصفة عن البعيدات عن الارتباط بالرجل بالزواج. كما يزيد هذا التصوير من الضغوط الاجتماعية على غير المتزوجات والتهديد بإقصائهن اجتماعيا بدعوى ارتباطهن بالشر**"[33] وتستوي في هذا الوصف العانس والمطلقة.

إن قضية المرأة الاجتماعية خاسرة في الأخير لسبب بسيط، هو أن المجتمع الذكوري لا يستطيع تغيير نفسه، فكيف يمكن أن تعول عليه المرأة كي يغير وضعها ويدفع بها إلى الأمام؟

تعود الكاتبة بعد أن تناقش حالة المجتمع وطبيعة الأنساق التي تتحكم في الذهنية العربية إلى معالجة الكيفية التي ينظر بها إلى المرأة المطلقة " **لقد اكتشفت الرائحة الخاصة بالمطلقة. تلك الرائحة المميزة التي تستميل كل الرجال الذين يعانون من الملل الزوجي، بل تحرض في الأزواج المخلصين حب المغامرة. وتطلق خيال كل عازب ليرسم المغامرات مع المطلقة ويشبع كبته إلى الأنثى**"[34] فالمطلقة تتحول إلى مخلوق قابل للاستهلاك أكثر من كل وقت، بعدّها إنسانا مبتورا من الحياة الطبيعية التي صنعها لها المجتمع، تصبح المطلقة سلعة رخيصة يمكن الحصول عليها مجانا.

إلا أن الفكرة التي لا يمكن إنكارها وهي أن المجتمع العربي مجتمع مريض بنفسه وأنه يؤذي نفسه بأفكاره تلك، على هذا لم يكن مهما أن تسعى الكاتبة إلى تغييره، ويكفيها أنها امتلكت الشجاعة كي تواجه أمراضه وتقوم بالكشف عن الأعراض المزمنة التي يعانيها، ليصير الشفاء حالة فردية لخصتها الكاتبة في أمومتها" **تمد لي يدها الطفولية الصغيرة، فأمسكها، فتستسلم لي أقودها حيث أشاء، وحيث تشاء الحياة، فأنا القدر والمستقبل والأحلام التي تدغدغ خيال لمى، كلمة ماما تلتحم بكل شيء، وأحس يدها تغفو في يدي مطمئنة مرتاحة، ويدي تمسك بيدها مرتجفة خائفة من الحاضر والمستقبل وعاتبة على الماضي، آه يا لمى الماما تطلب العون، لكن في قلبها حبا لا يعرف الهزيمة، حب أم لطفلها، يجب أن تظلي سعيدة يا لمى، يجب أن يدفعنا الأطفال للانتصار على كل العقبات والأحزان والإحباطات، يجب أن ينتصر الأطفال على المستحيل**

"[35]الأمومة والطفولة خارج نطاق الأبوة الأنانية المتعجرفة والمعتدة بذاتها، تمنح المجتمع العربي إحساسا بالقدرة على الاستمرار مثلما أعادت للكاتبة الأمل والقدرة على تجاوز القضبان التي وضعها فيه المجتمع والناس.

ج- النسق السياسي:

وعلى جانب محاذٍ للأزمة الاجتماعية التي تعانيها الكاتبة وهي تعرض سيرتها الأنثوية المأزومة بالصراعات، والمكتظة بالأفكار الشخصية التي تؤسس لحالة أنثوية جماعية، يقف النسق السياسي في شكل عرض سريع لبعض القضايا المتعلقة بالقدرة المادية على مواصلة الحياة، هنا يبدو أن هذه الرواية إنما تطرق أبوابا جديدة قد لا تكون من شأن النص، ولهذا فإن مواربتها أتت بشكل يتوافق مع الحاجز الذي بنته الأعراف للكاتبة؛ بعدّها امرأة مطلقة لا تملك ما يضمن لها ولابنتها حياة كريمة، على الرغم من مكانتها الثقافية والمهنية التي من المفروض أنها كانت ستغنيها عن الكثير من المعارك، ومنها معركتها النفسية الحادة مع أهلها حين عادت إليهم موبوءة بالطلاق ومعها طفلة عليها أن تربيها وتعيلها، فلو كان راتبها لائقا بمكانتها الفكرية وبمستواها التعليمي لاستطاعت أن تمتلك مسكنها الخاص، وأن تنأى بنفسها عن نظرات الآخرين اللائمة والمؤنبة " **أفكر بأزمة الطب والأطباء، والأزمة الاقتصادية الطاحنة، قد أستقبل مرضى، وقد لا أستقبل، ولكني أحس أن الأمرين سيان عندي، لأن مدخولي من العيادة بالكاد يكفي ضروریاتي أنا والصغيرة، إنه مدخول قاصر أو مصاب بالشلل، لأنه يجعلني عاجزة عن أن أحلم أو أخطط بشأن المستقبل، إنه لا يسمح لي أن أقول غدا سوف أفعل كذا وكذا، أو سوف أشتري كذا وكذا، إنه يجبرني أن أطأطئ رأسي وأنظر دوما إلى يومي وبالكثير إلى غدي القريب**"[36] الذي تجعل منه مخططات السياسة غدا أعمى، لا يملك له الإنسان خارطة دقيقة، أو تخطيطا لما يكون ولما لا يكون " **وعليه. فإن اختيار الكتابة لموقعها المقاوم ضمن نظام السلط الرمزية والمكانات الاجتماعية،يحميها من أن تكون حشوا في خدمة القوى السائدة، لكي تساعد في تحرير المقهورين والمقموعين الذين أسيء تمثيلهم...**"[37] وبالتالي فإن الأزمة التي تعانيها البطلة الكاتبة هنا، هي أزمة عامة أسهمت السياسة غير الراشدة في ترسيخ حالتها الوضيعة، من خلال الاستهانة بدور الطبيب في السلّم المهني، ومنه في السلم الاجتماعي والقيمي، حتى صار مجرد تاجر يبحث عن المريض الصفقة الذي يرفعه إلى مصاف المرموقين مهما كان الثمن الذي يدفعه في الأخير " **كنت ألجأ إلى بيتي الحقيقي، ومملكتي، إلى عيادتي بعد رحلة التسكع الممتعة هذه، ولحسن الحظ كان زبائني قليلين، لأني حديثة العهد بالمهنة التي غلب فيها الطابع التجاري على الطابع الإنساني** "[38] هذا ما يجعل النظام في النهاية مسؤولا أولا وأخيرا عن الاعتقادات التي يكونها المواطن حول نفسه " **وبالرغم من أن الهدف الأول الذي سعت إليه أغلب المجتمعات الإنسانية هو بلوغ العدل والمساواة، بل بلوغ أقصى درجات الكمال في هذا المجال، فإن الذي حدث هو أنها بلغت الكمال في مجال العقاب** "[39] ودفعت الفرد إلى القبول بأن يكون سلعة رخيصة تباع على مصاطب القرارات السياسية المجحفة، التي يتشارك فيها المال والسلطة في أغلب الأحيان.

إن الأزمة المادية التي يشترك فيها المواطنون العرب، تجعل حاسة الذوق معطلة بدورها، ولعل الهدف الأول لتفقير الشعوب والاستهانة بكرامة مثقفيها وعلماها إنما هو القضاء على الإحساس بالجمال ومنه القضاء على الإحساس بالحياة، حتى يصير الغذاء غاية بيولوجية أسمى من أي غاية فكرية أو ثقافية، مما يحقق حالة الركون إلى المتطلبات اليومية للعيش وتهميش القضايا الكبرى والمطالب العادلة والحقوق الضائعة، فيتحول المجتمع ككل إلى قطيع كبير هدفه أن يخرج باكرا للرعي ويعود في المساء للنوم، واضعا نصب عينه ضرورة الولاء لحماية الراعي ولحراسة الكلب الوفي " **وفي الحديقة الكئيبة التي لا تحتوي زهرة واحدة، ولا نبتة خضراء، وقد اختزل نصفها لتوسيع الطريق، في الحديقة التي تحبها لمى، وقد تعطلت أغلب ألعابها وتحولت لحديد صدئ، ثمة مرجوحة تجلس فيها وحيدتي... أفتح حقيبتي التي تحمل نقودا قليلة دوما... أقسم لعينيها الرائعتين أني سأشتري لها كل ما طلبته، وأتمنى لو يكفي راتبي لأغراض العيد، أظنه يكفي لشراء حذاء وفستان، أما**

اللعبة فأتمنى لو تنساها قليلا " [40] فالطفل الجائع في المجتمعات العربية عليه أن ينسى حقه في اللعب، لأن اللعب ترف غير قابل للتحقق.

د- النسق الفكري:

عملت الكاتبة على تحريك الرواية ضمن إطارها الواقعي من جهة، وضمن إطارها الفكري الخاص من جهة أخرى، ولهذا يمكن أن نعد سيرتها نمطا لشكل من الأفكار التي تمثل توجها إبداعيا تعارف عليه المبدعون الذين يعيشون غالبا حالات الأزمة الفردية الممزوجة بالأزمة الجماعية، هؤلاء الكتاب انصرفوا إلى تمكين الأيديولوجيات التي يعتنقونها من نصوصهم على أساس تحويلها إلى نمط من أنماط التفكير الجماعي الذين يسعون إلى إقراره أو الدعوة إليه، أما بعضهم فقد كانت التصورات الفلسفية للحياة وللجمال والإبداع ملمحا لنسف الواقع واستبداله بالخيال،

وهو نسق فكري لثلة من الكتاب الذين يحاولون تباعا الانتصار على أزماتهم بالحلم والأمل أو بالسعي إلى كسر الحواجز الروحية بينهم وبين العالم بإعمال الفلسفة نمطا للتفسير والتحليل، وتعليم الناس كيف يفعلون ذلك؛ فنجد الكاتبة تناقش قضيتها المأزومة ضمن المعايشة اليومية لأحداثها التي كان الوقت هاجسا فعليا لتنامي حالة الجزع حولها وبفعلها **" وتنتظرين رحمة النوم بعد أرق طويل طويل، وأخيرا تغرقين أو تنامين، ويضيع يوم، ويضيع شهر، وتضيع سنوات، وتتأملين اللاجدوى في حياتك وحياة الناس، وتتأملين اللامعنى، والحياة الرتيبة الروتينية التي لها إيقاع دقات الساعة، وتتوقف الساعة عن التكتكة فتنامين "** [41] إن تعاقب الزمن ورتابته يمنح الفكر حالة من الإحساس بالهزيمة الدائمة، فقد كان الوقت المخصص لمراجعة قرار الطلاق غير منطقي بالنسبة إلى امرأة تحاول أن تحيا حياة طبيعية محترمة.

تربط الكاتبة فكريا بين الساعة التي تأخذ فيها ابنتها الصغيرة إلى بيت عمها كي يأتي طليقها ليأخذها عنده وبين الحالة النفسية التي كانت تشعر بها كل مرة، تلك الحالة التي جعلتها تتنبه للاحتفاظ بتفصيل صغير ضمن إحصائية عن الانتحار بين أن معظم حالاته كانت في الساعة الثالثة. إن الزمن المحدد بهذا الوقت بالذات ليس زمنا مقصودا لذاته فهو يتحول في فكر الإنسان الذي تعود على الرتابة إلى زمن فلسفي يمكنه أن يتسبب بأي نوع من أنواع الجنون، خاصة وأنه زمن مشترك تتفق حوله مختلف الأنواع البشرية في المجتمع الواحد، الذي يكون نظام العمل فيه منظما بحيث تكون الساعة الثالثة موعدا لبداية فراغ إنساني هائل معبأ بالملل وإعادة الحسابات التي تفضي غالبا إلى الإحباط المقيت، أو الانغماس في شتى أنواع الإنهاكات الجسدية (العمل الإضافي)، والذهنية (التسلية الفارغة/ تلفاز- مقهى...) **" ذات يوم قرأت أن أغلب الانتحارات تحدث في الساعة الثالثة بعد الظهر، وأظن أن ما قرأته كان إحصائية حول عدد كبير من حالات الانتحار، وقد يكون ما قرأته خبرا كاذبا، ولكني خبرت بنفسي معاناة الساعة الثالثة بعد الظهر، غصت في زمن الساعة الثالثة بعد الظهر، تلك الساعة الميتة التي تتلاشى فيها الأجساد وتستلقي وقت القيلولة ناشدة قسطا من الراحة، وأنا شردتني تلك الساعة، عرفتها في كل الفصول. صيفا حيث الحرارة لا تطاق، شتاء في البرد القارس، والمطر، خريف وربيعا. صرت أحمل شهادة اختصاص في هذه الساعة المشؤومة، لأني على مدى أربع سنوات كنت أقوم بإيصال صغيرتي إلى بيت الوسيط حيث يأتي والدها ليصطحبها إلى عالم الهناك "** [42] فتوالي الزمن ضمن رتابة مملة يمنح الإنسان إحساسا بعدم أهمية وجوده الإنساني، هذا الزمن اللامتناهي يزداد حدة حين يتقرر حجز بعضه للأسى المطلق، وكأنه نوبة من نوبات المرض المزمن الذي لا تنفع المسكنات معه حلا.

ومثلما تفلسف الكاتبة الزمن، تفلسف بعض المشاعر التي خبرت تعاستها وسطوتها على نفسية الإنسان ومصيره، إنها ضمن هذا تدعو إلى المحبة والتسامح بعدّهما صيغتين لقبول الإنسان نفسه كمخلوق مفكر وله عقل قادر على التمييز بين وجوده البدائي، الذي يميل إلى السطوة وحب الامتلاك وتزعم السلطة، وسيادة الآخر وفق شروط العبودية، وبين إمكانية أن يتساوى البشر في حقوقهم وواجباتهم واختياراتهم الشخصية، سواء أتعلق مفهوم الفرد بكونه امرأة أو رجلا، أو تعلق بالمؤسسات والقيادات **" بذور الحقد لا تزهر، بل تتحول لغابة من الشوك بكل أنواعه، وأذكر نباتات تشبه كرات من**

الشوك، كنت أخشاها وأنا صغيرة، وأدهش كيف يلتهمها الحمار دون أن تخز الأشواك فمه ولسانه، الآن اكتشفت المعادلة الرمزية الدقيقة، فإذا استطاع الإنسان أن يأكل الشوك ويهضمه فإنه يتحول إلى حمار، فبعد ثلاث سنوات تحولت بذور حقده التي نثرها في الجو إلى غابات من الشوك، ونمت الأشواك بسرعة سرطانية وتحولت لنباتات عملاقة. وعلى مدار ثلاث سنوات أو أكثر من ألف يوم كنت أختبر أشكال الحقد اللانهائية، واكتشفت أن الحقد لا حدود له، وله أشكال لانهائية، وأنه في النهاية يحرق صاحبه ويحوله إلى هيكل أو مستودع لغليانه الأسود الأشبه بالقطران " [43] فالحقد الذي تعاني منه المجتمعات العربية لا يتعلق بعلاقات الأفراد فقط - وإن كان ينطلق منها - بل هو سمة عامة تحولت بفعل الترسيخ الزمني والقيادي والدعائي إلى نسق فكري لتلك المجتمعات، حتى حولتها إلى بقع مظلمة مقفرة جرداء.

إن الحقد الذي يعاني منه المجتمع العربي هو حقد مؤسس على فلسفة الإقصاء الكلي للآخر، ومحاولة ترسيخه ضمن التبعية الجنسية (المرأة للرجل) والدينية (الفرد للإمام/ البابا) والاقتصادية (الفقير للغني) والقيادية (الشعب للحاكم)، لهذا كان من الطبيعي أن يصبح الفرد العربي فردا مستلبا، تتجاذبه كل تلك الهيمنات حسب موقعه منها تجاذبا فضيعا، يجعله غير مدرك لحقيقته الإنسانية الحية والتي تستحق الحياة بكرامة **" أدركت أول حقيقة غيبها الحقد الأعمى عن عيني لسنوات، أدركت أني شابة. الشباب ثروة، وقلت بثقة شابة جميلة ذكية، وتذكرت وجهي وملامحي، ولون شعري وطراوة بشرتي وقوامي، عجبا كيف نسيت نفسي لهذه الدرجة، وعدت إلى غرفتي، وأمسكت بقرف رداء الحزن المريض، ورميته من النافذة، فتقاذفته رياح الخريف دون رحمة وصفعته شمالا ويمينا، غربا وشرقا وسقط أخيرا في بئر الفناء، ووقفت أمام المرآة أتأمل نفسي الجديدة... وأمسكت حقيبة يدي وقلت لأمي: لقد قررت أن أسافر في الرحلة السياحية إلى مصر"** [44] فإدراك الكاتبة لقيمة وجودها خارج الإطار الفكري الذي تؤسس له الأعراف، جعل الكاتبة تعي حقها في اكتشاف الحياة على طريقتها وبالتالي إمكانية أن تتجاوز أزمتها بمفردها حتى لو واجهت كل السلطات المهيمنة ثمنا لذلك.

هذه النبرة الثورية التي تشكل فكر الكاتبة جعلتها تربط بين قدرتها على الإبداع وبين استمرار وجودها، بل إن فقدانها لأحدهما هو فقدان للآخر بالضرورة **" تلك اللحظات ستترك أثرا بليغا في نفسي. ولن أنساها ما حييت، وسأحفظها في ذاكرتي في أقدس مكان. في ذلك المكان الذي يخبئ فيه الإنسان جواهره الثمينة. وكما يقال ربّ صدفة خير من مئة ميعاد. هل كنت أتخيل أنني سألتقي يوما بالكاتب الكبير الذي عشقت مصر من كتبه... لقد صرت أعرف وأفهم وكيف يتجاوز الإنسان ذاته ويتحول لرمز يؤمن به الملايين، وهؤلاء المبدعون الخالدون بكتبهم وآثارهم هم البناة الحقيقيون للإنسان، إنهم المنارة التي نهتدي بها والتي نتحلق حولها..."** [45] وهذا ما جعلها تختار الكتابة نبراسا لإنارة أفكار الآخرين ولزرع بذور التفكير والتفاؤل والأمل في نفوسهم، ولعل مهنتها كطبيبة وخاصة طبيبة عيون كان له الأثر الرمزي والفكري على طبيعة تشكل تلك الأفكار وكيفية أدائها، إضافة إلى قدرتها البليغة على ممارسة الفن (الكتابة) وهو بحد ذاته أداة للخلاص والاستمرار، ولمناقشة الخيارات والقيم والمبادئ التي تظل في العالم الواقعي مجرد أدوات للتمويه العاطفي، أو هي وسائل لاسترضاء الضمير وتدجينه **" لم أكن أعرف أن الأهل حين يربون أولادهم على مبادئ معينة، يريدون أن يظل كلامهم كلاما، لا ينزلون به إلى ميدان التطبيق... أنا لا أستطيع أن ألوم الوالد المفجوع بابنه، ولكن حين أتذكر حماسه الغريب لكل ثورة وانتفاضة، وتمايله طربا ونشوة وهو يقرأ:**

هنا على صدوركم باقون كالجدار

وفي حلوقكم كقطعة الزجاج، كالصبار

وفي عيونكم زوبعة من نار

كنت أشعر أن هناك حلقة مفقودة، أو فجوة تحتاج لمن يردمها، أليس هو من أنشأ أولاده على هذه الحماسة، وزرع في نفوسهم بذرة الكفاح الوطني، أم أنه مجرد كلام، لا، ليس مجرد كلام، إنه يؤمن بهذا الكلام شرط أن يظل بعيدا عن أولاده، عن ممتلكاته، عن أنانيته" [46] تلك إذا موضوعة الواقع الفعلية، الأنانية التي تعبئ الأفكار وتتجاذب الأهواء في

المجتمعات العربية المصابة بالفصام. فـ **"الخصائص الأيديولوجية المميزة للإنسان الذي يعيش داخل إطار ثقافي ما، تتشابه إلى حدّ كبير مع الخصائص المميزة للعراك الثقافي السادة آنذاك، ويخضع الإنسان بالضرورة لشروط هذا العراك الثقافي "**[47] الذي لم يخف أثره على رواية (هيفاء بيطار) بعدها تؤسس لفكر جماعي من خلال حدث شخصي ، وهذا ما يجعل الرواية السير-ذاتية تستعيد أحقيتها التصنيفية ضمن فئات السرد الأكثر تأثيرا والأشد خصوصية وعمقا.

الهوامش:

[1] - هيفاء بيطار، يوميات مطلقة (رواية)، ط02، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2006، ص 10.

[2] - ميخائيل باختين، النظرية الجمالية، المؤلف والبطل في الفعل الجمالي، رؤية موسوعية فلسفية جمالية سيكولوجية، تر: عقبة زيدان، ط 01، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2017،ص 09.

[3] - الرواية، ص 07.

[4] - الرواية، ص 08.

[5] - صلاح صالح، سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللغة السردية، ط01، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2003، ص09.

[6] - الرواية، ص 84، 85.

[7] - الرواية، ص 20.

[8] - الرواية، ص 08، 09.

[9] - هويدا صالح، الهامش الاجتماعي في الأدب، قراءة سوسيو ثقافية، ط01، رؤية للنشر، القاهرة، 2015، ص167.

[10] - بيير زيما، النقد الاجتماعي، تر: عايدة لطفي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1991، ص 143.

[11] - الرواية، ص 28، 29.

[12] - الرواية، ص 55.

[13] - الرواية، ص 58.

[14] - الرواية، ص 70- 71.

[15] - سعيد بنكراد، السرد الروائي وتجربة المعنى، ط01، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2008، ص 37.

[16] - الرواية، ص 78.

[17] - خليل الشيخ، السيرة والمتخيل قراءات في نماذج عربية معاصرة، ط01، دار أزمنة، عمان، 2005، ص 33، 34.

[18] - الرواية، ص 15، 16.

[19] - الرواية، ص 16.

[20] - جون ستوري، النظرية الثقافية والثقافة الشعبية، تر: صالح أبو أصبع، فاروق منصور، مراجعة: عمر الأيوبي، ط01، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2014، ص 223.

[21] - الرواية، ص 23.

[22] - الرواية، ص23، 28.

[23] - الرواية، ص 33.

[24] - الرواية، ص 35.

[25] - الرواية، ص 55، 57

[26] - بام موريس، الأدب والنسوية، تر: سهام عبد السلام، مراجعة: سحر صبحي عبد الحكيم، ط01، المجلس العلى للثقافة، القاهرة، 2002، ص15.

[27] - الرواية، ص 63، 64.

[28] - الرواية، ص 64.

[29] - الرواية، ص 72، 73.

[30] - الرواية، ص 75.

[31] - الرواية، ص 79، 80.

[32] - الرواية، ص 80، 81.

[33] - بام موريس، الأدب والنسوية، ص 15.

[34] - الرواية، ص 85.

[35] - الرواية، ص 93.

[36] - الرواية، ص 16، 17.

[37] - هويدا صالح، الهامش الاجتماعي في الأدب، قراءة سوسيو ثقافية، ص 221.

[38] - الرواية، ص 23.

[39] - عمر مهيبل، من النسق إلى الذات، ط01، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2007، ص 58.

[40] - الرواية، ص 90، 93.

[41] - الرواية، ص 15.

[42] - الرواية، ص 20.

[43] - الرواية، ص 38.

[44] - الرواية، ص 39، 40.

[45] - الرواية، ص 51، 53.

[46] - الرواية، ص 82، 83.

[47] - عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، ط01، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، ص 40.